ماتريوشكا

قال «ناجي سعيد» أن لقاءه مع «جالينا ماكاروفا» كان أجمل ما حدث له في حياته كلها، يمتلك «ناجي» شعرًا توجه الشيب المبكر بتاج الوقار. وهو ما يزال في الثامنة والأربعين من العمر. ورغم مرور ما يقرب من العشرين عامًا على زواجه من «جالينا» إلا إنه لا يزال يتذكر تاريخ اليوم الذي قابلها فيه لأول مرةٍ. يوم ٢٥ يناير ١٩٩٨ كانت الأضواء تزين مباني جامعة «لومونوسوف»، والأناشيد والصخب يملأ أركان المبيت الطلابي. وقتها كان «ناجي» يدرس الطب وأمل استكمال دراسة «الماجستير» يداعب أعماقه، عندما خرج مع مجموعة من زملاء الدراسة ليستمتعوا بالاحتفال. بدأ الشباب والفتيات يرقصون رقصة ذات إيقاع سريع تنتمي للفلكلور الروسي، في حين اكتفى هو بالتصفيق. وعندما التفت إلى يمينه كانت تقف متمايلة مع الإيقاع الذي ملك عليه حواسه. كانت تقف بقامة ممشوقة ترتدي ثوبًا مزركشًا فضفاضًا، وتضم خصلات شعرها الأشقر الجميل بغطاء

رأس أحمر زاهي تربطه حول عنقها، وتنسدل خصلات شعرها على جبهتها في مشهد طفولي.

عندما وصل إلى تلك الذكرى أغلق عينيه وهمس:

- كانت فاتنة، ذلك المزيج الفريد بين الطفولة والأنوثة والاحتشام والبراءة ملك عليّ لُبي وحواسي، وجدتني ألتفت نحوها لأقول في خفوت بالروسية التي أصبحت أجيدها كأهلها:

- أنت أجمل فتاة تلك الليلة.

وقتها ابتسمت عن أسنان نضيدة منتظمة كاللؤلؤ، وتناولت كفي؛ لتصحبني إلى ساحة الرقص، تعرفت عليها في تلك الليلة.

وعرفت أنها تدرس الهندسة ولكنها منصاعة لرغبة والديها ولا تدرسها عن حب. أصبحنا لا نفترق وكلما نظرت إلى وجهها وتصفيفة شعرها وغطاء شعرها الأحمر ـ الذي عرفت أنها تمتلك منه عشرات الأشكال ـ شعرت أنها تقلد وبدقة تلك الدمية التي يعتبرونها أحيانا شعارًا لروسيا. دمية الماتريوشكا الشهيرة التي تتكون من عدة دمى خشبية مجوفة توضع بداخل بعضها البعض، والتي تمثل فتاة ترتدي زيا فلكلوريًّا، وتضم شعرها الأشقر بغطاء رأس أحمر.

وفي الكريسماس قمت بشراء دمى الماتريوشكا المتداخلة وأهديتها

لهـا. رأيت نظرة إعجـابٍ وتبجيل في عينيها الزرقاوتـين، وطبعت قبلة رقيقـة على وجنتـي لتصطحبني إلى غرفتها؛ لأجد عـشرات النماذج من تلـك الدمية تغطـي أرفف المكتبة. واقتربت برأسـها مـن أرفف المكتبة لتصير دمية كبيرة وسط الدمى الخشبية الملونة وقالت لي ضاحكةً:

- هل أشبهها فعلًا يا «ناجي»؟

انتهت من دراستها وأكملت أنا دراساتي العليا في تخصص الباطنة.

- ومتى تزوجتها؟

بدأ يستعيد هدوءه نسبيًا وتراجع في مقعده الوثير ليقول مبتسمًا:

- تزوجنا في أول سـنوات دراسـتي للماجسـتير بعقد مدني بالطبع. فهي أرثوذكسـية وأنا مسـلم. عشـت معها أجمل شـهر عسل في الدنيا، كانت تعشقني وتعمل على راحتي دائمًا، وأنا كنت أعمل على إسعادها في كل حين.

جالينـا كأنثى تعتبر حلـم أي رجل، الأنثى التـي تعرف جيدًا كيف ترعـى أنوثتها. تمتلك أكبر مجموعة من الدهانات والمسـاحيق وأدوات التجميل. تعشق الاهتمام بجمالها وجسدها، دائمًا ما تجد منها رائحة طيبة وكرنفالًا من الرقة والنعومة والتجدد اليومي. تقضي وقتًا طويلًا للغاية في العناية ببشرتها وشـعرها وأظافرها. ذات مرة وجدت شـعرة بيضاء

وحيـدة وجـدت طريقهـا صدفـة، وهي تتحسـس خصلات شـعرها، والأمـر طبيعي تمامًا لأن هذا هو ثمن اقترابنا من حاجز سـن الأربعين. وجدتهـا تتجمـد في رعبٍ وهي تتأمل تلك الشـعرة المتمـردة، والتفتت نحوي لتقول في صوتٍ مختنقٍ:

«ناجي» ما هذا؟

ألقت بنفسها بين ذراعي وهي تبكي قائلة:

- هل سأفقد جمالي؟ هل سيشيب شعري ويتهدل جلدي؟

احتضنتها في حنان وأنا أهمس في أذنها:

- ستظلي دائمًا حبيبتي الصغيرة النضرة.

- متى شعرت بأن هناك مشكلة ما؟

تطلـع إلي المرئيات خارج النافذة، ثم بدأ في طقوس إشـعال غليونه الـذي عاد به من روسـيا. وأصبح ملازمًا له دائـمًا. وعندما نفث دخانه العطر في جو الغرفة، شـعرت به ينفث كل همومه وشجونه وقلقه معه، ونظر إلي ليقول في خفوت:

- أنـت تعـرف أنها تعشـقني عشـقًا، فعندمـا انتهيت من دراسـتي للدكتـوراة، وقررت أن أغادر روسـيا؛ لأبدأ عملي كمدرس في كليـة الطب جامعة القاهرة، قررت أن تعـود معي. تعلمت كل

مـا أحبـه من الأكلات المصريـة وبرعت في ذلـك. كانت والدتي قلقـة عندمـا عرفت بأنني تزوجـت من روسـية، ولكنها أحبتها للغاية عندما رأتها وقضت في صحبتها يومًا كاملًا. كانت تعتقد أننـي تزوجتها لأنها فاتنة ولكن روح «جالينا» توافقت مع جهاز الاستشعار الذي لدى والدتي والذي أخضعتها لمقاييسه ومعايره الدقيقة. أدركت والدتي أن الفتاة تعشق مصر والتقاليد الشرقية. كانت مسـيحية متدينة، ترتاد الكنيسـة بانتظام وتصلى وتصوم. كانـت تعاني عيبًا خلقيًا منعنا مـن إنجاب أطفال. ولكن ذلك لم يهمني كثيرًا؛ لأن حبي لها جعلني أزهد رغبتي في الإنجاب.

يمكنك أن تقول أن خوفها من تأثير عامل الزمن عليها كأنثى شـكل لها هاجسًا صاحبها ليلًا ونهارًا لدرجة أنها بدأت تهمل فروضها الدينية..

وقطع عبارته لينفث دخان غليونه ويقول:

- منـذ عشر سـنوات توقفت عن الذهاب للكنيسـة، وبدأت تغلق عليهـا غرفتها الخاصـة لمدة سـاعة يوميًا، وقالـت لي إنها تصلي. وصل لمنزلنا يومًا ما طرد من روسيا، وعرفت أنها قامت بمراسلة جهة ما؛ ليرسلوه إليها. وقتها لم تكن في المنزل فقمت بفتح الطرد بكل أريحية. ووجدتني أتطلع إلى أجمل دمية ماتريوشكا شاهدتها في حيـاتي. كانت أبعادها مختلفة عـن أبعاد الدمى العادية، كانت

طويلـة يصل طولها لخمسـين سـنتيمترًا تقريبًـا ومطلية بالذهب الخالص. وعندما فتحتها بإدارة نصفيها عكس بعضهما البعض، وجدت بداخلها دمية أقل كثيرًا في الطول، لم تكن الدمية الصغيرة تشـبه الكبيرة في الملامح كما هي العادة، ولكنها كانت لها ملامح طفولية ما. فبدت الدميتـين كأم تحتضن بداخلها ابنتها. وعندما عـادت، رأيـت أعتى علامات الغضب عـلى ملامحها. وقالت لي إنهـا تفضل أن يكون لها خصوصيات. لم يسـبق لها أن تحدثت لي بتلـك اللهجـة العنيفة من قبـل. تركتها تنقل الدميـة الذهبية إلى غرفتها الخاصة التي حوّلتها إلى معرضًا لكل الأشـكال والألوان المختلفة للدمى التي جائت بها من «روسيا».

مـرت الأيـام وفارقها التوتـر وعـادت لطبيعتها المرحة وابتسـامتها المشرقـة، عـادت لنضارتهـا وبهجتهـا وتصفيفة شـعرها المميـزة. كنت مشغولًا في تعضيد مركزي الأدبي في الجامعة وفي أبحاثي ومحاضراتي.

ومـع عبوري لحاجز سـن الأربعين وسـماعي للفظـة العقد الخامس المزعجـة، تأملـت وجهـي في المـرآة، كانـت كل تلـك السـنوات التـي أحرقتها في الدراسة والعمل قد تجمعت واحتشدت وتركت آثارها علي جانبي عيني على هيئة تجاعيد دقيقة متقاطعة. وهناك تلك الأخاديد التي رسـمت نفسـها بين أنفي وفمي، لـن نتحدث عن الشـيب الذي انتشر

وتوغل بجراءة، وبدون تردد في كل أنحاء شعري، ولحيتي التي اعتدت على تركها نامية وتحديدها بحرصٍ؛ لتعطيني سمت العالم الوقور.

وعندما تأملت ملامح «جالينا» التي جلست تحسو اللبن الممزوج بالشيكولاتة، وهي تشاهد فيلمًا كوميديًا وتضحك، ابتسمت لأن الفارق بيننا في السن كان سنة واحدة لصالحي. هي الآن على أعتاب الأربعين ولكن ملامحها تبدوا كملامح شابة في العشرينات. لم تعد هناك أية آثار للشيب في مفرقها، أنا متأكد إنها لا تستعمل الصبغة فأين ذهب الشعر الأبيض؟

- متى شعرت بأن هناك ما يريب؟

صمت قليلًا قبل أن يقول:

- كنا نحتفل بعيد زواجنا السادس عشر في مطعم راقٍ بفندق من فئة النجوم السبعة. وعندما انتهينا من الطعام وجاءت الكعكة الفاخرة التي كنت قد اتفقت مع إدارة المطعم عليها، وقدمت لها هديتي وكانت سوارًا رقيقًا من الماس يليق بمعصمها، دمعت عيناها وهي تقبلني وتقول ببراءة طفلة:

- أحبك وسأبذل كل مرتخص وغالي من أجل أن تحبني طيلة حياتك.

قبلت كفها وقلت في تأثرٍ بالغٍ:

- أنتِ ملاكي وطفلتي الحبيبة التي لم تمسها أنامل الزمن، سيعتقد من يساعدنا الآن إنكِ تجلسين مع والدك.

قلتهـا وضحكت، وكنت أعتقد أنها سـتضحك لدعابتـي، ولكنها صمتت وظهر عليها التأثر الشديد لتقول في صوتٍ متهدجٍ:

- ستظل دومًا طفلي المدلل الذي لن يكبر في عيني أبدًا.

اصطحبتها إلي قرب الفرقة الموسيقية وبدأنا في رقصة هادئة، نتحرك فيها برفق مع أنغام الموسـيقى. هنا لاحظت أنها تتحرك بحرصٍ، وهي تنقـل قدميها في خطواتهـا الراقصة، فنظرت إلى قدميهـا لأجدها تنتعل حذاءً ذي كعبين مرتفعين، تطلعت لها مبتسكانتمًا وقلت:

- كنتـي طيلـة حياتـك تكرهـين الأحذيـة ذات الكعبـين المرتفعـين وتفضلين الأحذية الرياضية، ماذا حدث؟

ضحكت لتقول:

- كنـت أريـد أن أكـون على مسـتوى الحـدث والمـكان الراقي الذي دعوتنـي إليـه. كانـت تتحـرك بإرتبـاك مـن لم تعتـد السـير بتلك الأحذيـة. وعندمـا اسـتندت برأسـها إلى صدري لاحظت شـيئًا غريبًـا، كان رأسـها يـكاد يلامس كتفـي برغم ارتداءهـا للكعب العـالي. كان فـارق الطـول بيننا لا يـكاد يذكـر، إن «جالينا» الآن أقصر من طولها الطبيعي بخمسة سنتيمترات تقريبًا.

- هل فقدانها لطولها بتلك الطريقة كان له أي مبرر طبيًا؟

هز رأسه ونفث المزيد من دخان الغليون، ليقول وهو يرفع منظاره الطبي إلى جبهته، ليغوص وسط خصلات شعره الرمادية المتناثرة علي جبهته، وقال في هدوء من يحاول السيطرة بالكاد على أعصابه:

- طبيًا:- يقل طول الفرد تدريجيًا بمقدار أربعة سنتيمترات تقريبا بداية من سن الأربعين وصولًا لسن الثمانين وذلك لعوامل عديدة منها:

منها تغير انتصاب القامة، والنقص في نمو فقرات الظهر، وانحناء العمود الفقري إلى الأمام، وزيادة الضغط علي الأقراص الليفية بين الفقرات فيه مع عدم تعويضها لحجمها الطبيعي، والزيادة في تقوس مفصلي الورك والركبة، ونقصان المسافة الفاصلة بين العظم على جانبي مفاصل الأطراف العلوية والسفلية ومنطقة جذع الجسم، والتغيرات التي تعتري مفاصل القدمين وتفلطح القوس في أسفلها.

- وبالطبع كل هذا مستبعد مع حالة «جالينا» فهي لم تتم الأربعين عامًا من عمرها بعد.

- طرق هذا ناقوسًا ما في عقلي، ولكنني انغمست في دوامة الحياة اليومية. هناك سبب غامض أدى لفقدان زوجتي عدة سنتيمترات من طولها ولكن الحياة ستستمر.

تكرر الأمر ذات صباحٍ، ولمحت في ذعر تلك الشعرة البيضاء التي ظهرت في شعرها تتحسس طريقها في حذر. وصاحب ذلك ظهورعدة

تجاعيـد دقيقة عـلى جانبي فمها. لـك أن تتصور الانهيـار الذي أصابها وجعلها تعتكف في غرفتها ليوم كاملٍ. كنت أسـمعها تبكي وتبتهل في صلوات بلغةٍ ما، حاولت أن أقنعها بالخروج، أقسمت لها أنني أعشقها كـما هي. ولكـن الأمـر كان بمثابة وسـواس قهري بالنسـبة لها يضغط عـلى أعصابهـا ويطاردهـا في الصحو قبـل المنام. سـمعتها تتألم وتصرخ وحاولـت اقتحام الغرفة ولكنني فشـلت. يمكنـك أن تقول إنني نمت تعبًـا على أريكـة خارج غرفتها. في الصباح وجدتهـا تخرج وهي غاية في التألـق وكانـت حالتها المعنويـة مرتفعة للغاية، عندمـا عانقتني ودفنت رأسـها في صـدري وتطلعت إلى ملامح وجهها، وجـدت أن ما توقعته قد تحقق. لقد اختفى الشيب من شعرها وعادت بشرتها لرونقها الدائم بلا أية تجاعيد وفقدت عدة سنتيمترات من طولها مرة أخرى.

- هنا قررت أن أفتش غرفتها؟

- كان يجـب أن أفهـم، كنـت وقتها قد قـرأت بالتفصيـل عن دمية «الماتريوشـكا» التي تسـيطر بظلالها على حياة زوجتي بالكامل. وعرفـت عنها، أن صُنعت اللعبـة لأول مرة عام ١٨٩٠ من قبل «فازيلي زفيوزدوشـكين». تشـتق تسـمية الماتريوشـكا عن اسم «ماتريونـا النسـائي»، وهـي عبارة عـن دمية مزخرفـة توضع في داخلها دمى أقل حجمًا.

- تعود أكثر الأساطير شعبيةً لظهور الماتريوشكا في روسيا إلى تسعينات القرن التاسع عشر حين اخترع الخراط الروسي «فلاديمير زفيوزدوتشكين» شكل الماتريوشكا الروسية. أما أول زخرفة لها فقام بها الفنان المحترف «سيرغي ماليوتين».

- هناك فرضية أخرى تقول أن الماتريوشكا الروسية معمولة على غرار دمى خشبية يابانية. إلا أن مذكرات «فلاديمير زفيوزدوتشكين» تقول أنه لم يسبق له رؤية لعب يابانية مزخرفة. ثمة معلومات تاريخية تفيد بأن فنانين روس كانوا يصنعون بيضات عيد الفصح الجوفاء القابلة للانفصال.

- ويعتقد بعض الباحثين أن سابقة الماتريوشكا هي صنم وثني ذهبي على شكل امرأة. كان الصقالبة القدامى يعبدونه. وكان هذا الصنم معمولاً من الخشب وفي داخله صنم صغير يمثل حفيدها. عرضت الماتريوشكا لأول مرة عام ١٩٠٠ في معرض باريس العالمي، حيث أحرزت الميدالية البرونزية، مما شجع الفنانين والحرفيين الروس على صنعها بكثرة في شتى أنحاء روسيا. واشتهر معمل في مدينة سيميونوف بصناعة دمية الماتريوشكا التي اكتسبت شكلها الحالي المعروف في العالم كله عام ١٩٢٢.

- يـتراوح عـدد الدمـى في داخل الماتريوشـكا الروسـية من ٣ دمى إلى ٥ دمى. وكلها على شـكل بيضة ذات قعر مسـطح تتألف من القسـمين العلوي والسفلي. وشـهد معرض طوكيو عام ١٩٧٠ عرض أكبر ماتريوشكا تتألف من ٧٢ دمية.

وصمت ليلتفت نحوي ويقول:

- هنـا صممت عـلى تفتيـش الغرفة لأن تلـك الدميـة الذهبية التي وصلت من روسـيا وغضبت؛ لأنني شـاهدتها تقول المعلومات التي جمعتها إنها إله وثني ما. اسـتطعت أن أسـتغل فرصة غيابها عن المنزل وكنت قد انتزعت مفتاح الغرفة من سلسلة مفاتيحها. داخل الغرفة كان هناك رائحة عضوية ما أثارت قلقي، ووجدت تلـك الدميـة الذهبية مثبتة في محيط دائرة مـن النقوش والكلمات المنقوشـة بحروف غريبة. خمنت إنها حروف لغة سلافية قديمة، قد تكون اللغة «الكاشوبية». وهناك شمعتان سودويتان مثبتتان عـلى جانبي الدميـة مع آثار لسـائل أحمر. لقد اسـتخدمت دمها الخاص في كتابة عدة كلمات، شـعرت بالشـعيرات تنتصب على طـول ذراعي والقشـعريرة تزحف على طول عمـودي الفقري. «جالينا» لم تعد تذهب للكنيسـة، «جالينا» تمارس عبادة وثنية ما وتتقـرب لإله وثني من أجل الشـباب الدائم. ولكـن يتبقى هنا

لغز فقدانها المستمر لطولها، هنا قررت أن أستعين بنظام مراقبة كنت قد اشتريته ولم أثبته في أنحاء الشقة بعد. كان يتكون من كاميرات دقيقة تعمل لا سلكيًا مذودة بميكروفون لنقل الصوت والصورة إلى صفحة إنترنت خاصة عبر أحد تطبيقات متجر الجوجل، وقمت بتثبيت الكاميرات في غرفتها وانتظرت.

- وهل تتوقع أن تكون الليلة هي الليلة الحاسمة؟

نهض ليقول في خفوتٍ:

- لقد مر ما يقرب من الستة أشهر منذ تثبيتي للكاميرات، ولم تلتقط حتى الآن ما يريب، ولكن أمس تكرر الأمر ولمحت مظاهر التقدم في السن تظهر على ملامحها، واعتكفت في غرفتها وأنا أراهن أن الكاميرات ستنقل لي الحقيقة الآن.

كنا نجلس أمام شاشة الحاسب النقال نتطلع إلى الغرفة التي يحتشد علي رفوف جدرانها أكبر عدد من دمى الماتريوشكا. كانت زوجته تجلس بالفعل وهي تضم كفيها أمام صدرها، وتبتهل بعبارات غامضة غير مفهومة وقد أشعلت الشمعتين. واستمرت في ابتهالاتها لمدة ما يقرب من الربع ساعة قبل أن تخرج لفافة من طيات البلاستيك الشفاف؛ لتعمل على بسطها على أرضية الغرفة بالكامل وتوصل، تستخدم

شرائـط مـن اللاصق لتثبـت طيـات بلاسـتيكية آخرى عـلي الجدران. تبادلنـا النظـر في عدم فهم، قبـل أن نراها تقف وتبدأ في البـكاء ثم تبدأ في مـا جعلني أشـهق وأنا أفـرغ محتويات معدتي أرضًـا. في حين جلس «ناجي» يشـاهد ما يحدث أمامه وقد اشـتعل ما تبقى من سـواد شـعره شـيبًا من هول ما يراه. كانت ترتدي ثيابًا مزركشـة، وتصفف شعرها، وترتدي غطاء شـعر أحمر مثل دمى «الماتروشكا». وكانت تعيش محاطة بمئات من دمى «الماتريوشـكا». والآن كانت تنسـلخ من لحمها حرفيًا، كانت تقشر الطبقة الخارجية من لحمها في مشهدٍ بشع، وكأنها تنتزع من عليها معطفًا من اللحم. كانت تشهق في ألم وطيات اللحم تسقط أرضًا مختلطة بالدم، وبعد دقائق كانت تقف «جالينا» جديدة في كامل رونقها وبهائها بلا شيب ولا تجاعيد ولكنها أقصر قامة بعدة سنتيمترات.

(تمت)